

مشاهدات وملاحظات

للدكتور أحمد ضيف

الأستاذ بالجامعة المصرية

ربما كان المصري من أشد الناس نقدا لبلاده وقومه ، وأكثرهم دعاية لنشر عيوبه وعيوب أهله ، حتى لقد يحسب ذلك من المسائل العادية التي لا يخلو منها مجلس من مجالسنا ولا مسامرة من مسامراتنا . بل أصبحنا لا نرى فينا غير عيوب منبثة في عاداتنا وأخلاقنا ونظمنا الاجتماعية : في الأمور وفي المجتمعات ، وفي البيوت والشوارع ، وفي الجسد والحزل ، وفي ثقافتنا وتربيتنا العقلية والعامة والنظامية وفي كل شيء يتصدر عنا أو يحيط بنا . وقد عرف المصري بهذا العقل التهكي الذي يقلب الجسد هزلا والحزل جدا لرغبته أو لميله إلى التسلية وبث السرور في نفسه ليدفع عنها ما بها من آلام وسأم . وكان ذلك أكثر ما يكون انتشاره بين العامة ليقطعون به الوقت لكثرة ما لديهم من فراغ أو لكثرة ما يتورهم من ملل .

وقد سرت عدوى هذا الخلق إلى الخاصة منا بشكل جدي ، الغرض منه توجيه النظر إلى ما فينا من عيوب اجتماعية للعمل على إصلاحها وأصبحنا نحن المتعلمين أكثر الناس تحدثا عن عيوبنا في مجالسنا ومجمعاتنا .

ومن الغريب أنك تسمع كل إنسان يتألم مما يراه ذائعا من هذه العادات التي يستنكرها هو ويرى غيره بالتحول والتقصير . ولا نكاد نجد ثمرة لهذا الروح النقدي الذي صار عادة لنا الآن غير كثرة الأحاديث وإعادة ما نقوله في كل مجلس ومجتمع وكأننا ينتظر كل منا أن يعمل غيره على إصلاح هذه العيوب ، أو يضع تبة ذلك على أولى الأمور ويتكل عليهم كل الاتكال .

ولكن برغم ذلك نرى حركات اجتماعية تدعو إلى العمل ونرى جماعات تنظم وتعمل على إصلاح بعض العيوب الشائعة فينا ، غير أن أعمالها تسير ببطء شديد .

لذلك نرى مظاهر هذه العيوب لا تتغير في مجتمعاتها عما كانت عليه من سنوات في جمهور الشعب . على حين أننا نرى الإصلاح يبدو في بعض الأسر والأفراد الذين خرجوا من تلك الأنظمة القديمة سواء أكان ذلك في نظام الأسر كالمسكن والمأكل والمشرب ، أم في نظام الأفراد في هيئاتهم وتغيير عاداتهم ، وهذا يدل على ذلك الخلق الكامن فينا ودوا اشتغال الإنسان بنفسه والعناية بها قبل المجموع . وأننا نتألم مما نراه في مظاهرنا الخارجية ومظاهر الشعب في جلته ، وذلك لأن مظاهر أمة من الأمم هي التي تدل على أخلاقها وعلى قوة التفكير الكامنة فيها وتدل بخاصة على ما لها من كرامة واحترام في نفوس غيرها .

فلو أنك شاهدت رجلا قدرا عرفت أنه لا يعنى بنفسه ، ودعاك ذلك الى عدم احترامك إياه ، وهذا ما نشاهده مبتدئا في جمهور الشعب المصري . سر حيث شئت في أى طريق من طرق القاهرة وفي أى حى من أحيائها العظيمة أو الحقيرة وانظر الى أفراد الشعب فإنه لا يقع نظرك إلا على شيء لا يرضاه لنفسك ولا لقومك ، ولعلنا اعتدنا هذه المناظر وهذه العادات فصرنا لا نسمي منها كثيرا .

ولكن الذى يرى ذلك في صورة مكبرة هو الأجنبي الذى يجرى لزيارة بلادنا . يرى أمة متفرقة في زياها وعاداتها وثقافتها . يرى الأمة طبقات مختلفة في كل شيء ، وهذا الاختلاف ليس محصورا في اختلاف الطبقات كالعامة والخاصة وكطبقة التجار وطبقة العمال ، بل يمد أفراد كل طبقة يختلف بعضهم عن بعض . فطبقة العمال أو الباعة المتجولين يختلف بعضهم عن بعض في ملابسهم وعاداتهم ، فهذا يلبس لباسا غير ذاك ، ويتكلم بلهجة غير ما يتكلم به زميله ولكن يجمعهم شيء واحد هو عدم النظام وقذارة هيتهم وسوء حالتهم في ملابسهم وما كلهم ومسكنهم . وهذا يدل على أنه ليس لنا شعار قومى ولا وحدة قومية .

فهذه المظاهر يحكم علينا غيرنا ، يحكم على عقليتنا وعلى تفكيرنا وعلى ذوقنا وعلى عقائدنا بما يراه في ملابسنا وما كلنا ومسكننا وحركاتنا في القيام والجلوس وأحاديثنا في المجالس والمحافل ومعاملاتنا لأنفسنا أو لغيرنا مما يخرج عن مقياس الذوق المعروف لدى الأمم المتحضرة ، ويدل على أننا لا نزال في سذاجة في كل شأن من شؤون حياتنا ، بل على أننا في وقوف بل في تقهقر رغم الأيام التى تمر بنا والدروس التى نتلقاها ورغم ما نشاهده لدى الأمم الأخرى التى نراها ونعاشرها .

وذلك لأن مظاهرنا تدعو الى الريبة في صلاحية تربيتنا وفي إدراكنا للحياة وللحضارة ، والمثل يقول : ” الكتاب يعرف من عنوانه “ . والحق أنك اذا رأيت رجلا لا يعنى بملبسه ولا بشكله ولا بنظام عيشته حكمت بأن عقله ناقص وذوقه ناقص وإدراكه للحياة ومعانيها ناقص أيضا .

فالذى يجب أن ندعو إليه قبل كل شيء هو تنظيم حياتنا الاجتماعية أو إصلاح مظاهرها في الخارج والداخل : في ملابسنا وماكلنا ومساكننا ، وفي آدابنا في المحادثة ، وفي بيعنا وشراؤنا وفي إفهام الشعب أو العامة أن الأمة لا تحترم إلا إذا كان مظهرها يدل على احترامها لنفسها .

تقدم إلى بالرجاء أحد اصدقائي الزلاء بأن أرافق بعض أقاربه الذين جاءوا من باريس لزيارة بعض الأحياء الوطنية في القاهرة ، فرافقت هؤلاء إلى حي الغورية والأزهر . واخترقنا حي التريسة ، وكان من بينهم شيخ مثلى الجسم حاد النظر ، حاد الإدراك ، لا يكاد يمر بشيء إلا حقق النظر فيه وإدرك خفيه ، ومعه زوجته وهي شبيخة أيضا حسنة الزى دقيقة الإدراك يظهر أنها تحب الجمال في كل شيء .

مررنا برجل يلق بعض التوابل في هاون من الحجر الصوان ، وهو رث الثياب يحمل على جسمه جلبابا ممزقا يظهر أعضائه النحيفة ، حافى القدمين يتصبب عرقا ، يحمل مدق من الحديد الثقيل وهو يرفعه ويخفضه ، وكلما رفعه أو خفضه شقق شهقة كأنها شهقة الموت والعرق يسيل من كل جسمه .

ف نظرت السيدة إليه ثم رجعت النظر إلى وقالت : ماذا يعمل هذا الرجل . قلت : يلق بعض التوابل . فقالت ؟ ياله من بأس قدر .

وصعدت معهما في سلم قبة الغورى ليريا باب القبة العجيب الصنع ، فلما وصلنا إلى مصعد الباب رأيت الشيخ وقف قليلا وأخذ يقدم رجلا ويؤخر أخرى . فقلت له : ماذا؟ فلم يجبنى وإنما نظر إلى قدمه في تردد وحيرة ، فنظرت معه إليها وإذا حذاءه قد انغمس في..... فأحمر وجهى نجيلا منه عند ما سمعته يقول لى : أليس بهذا المكان خادم يزيل ما بهذا الباب الجميل من أوساخ ؟ فالتفتت ورأى وقالت مشيرا إلى مسجد الغورى من الناحية الأخرى : وهذا أيضا باب جميل . فالتفت وضحك وعرف أنى فررت من الاجابة على سؤاله .

ثم أليس من المنجل لأمة من الأمم أن تنص شوارعها بل مدنها بأبناء السبيل القذرين المشوهين الذين لا يفترون عن الحيوان إلا بالكلام ؟

واليس من المنجل لنا أن نرى في كل مكان أفذارا وأوساخا وأناسا أزيائهم منومة بشعة المنظر ، تدل على الفرقة بين أفراد الجمهور وعلى أنه ليس لنا طابع قومى في شيء ؟

واليس من المنجل أن نرى بائع الطعام المتجول في الطرق أمام أعيننا وأعين غيرنا قدرا ، حافى القدمين تجتمع جيوش الذباب على ما يحمل فوق رأسه من خبز ولحم وبخيره مما تنفر منه النفس ؟

وأليس من المعيب أن نرى بائع الشراب على هذه الحال المؤلمة التي تحملنا على التحجل من أنفسنا ؟ وأليس من الشار لأمة سائرة في سيل الحضارة مثلنا أن نرى بائعي الحلوى والفاكهة جالسين في الطرق على أفاريزها في حالة تدل على عدم العناية بأنفسهم وبما يقدمون للجمهور من ما كل ومشرب وقد تراكت الأقدار والأتربة والذباب وهم جالسون مطمئنون فوق الثرى كأنهم في بيوتهم أوفى أمكنتهم الخاصة .

دع هذا فذاك ومزيباب الخلق وانظر الى الشعب هناك من جالس أو واقف ينتظر الترام ثم عرج على دار محكمة الاستئناف وادخل في ساحتها وقل لي ماذا ترى ؟

ترى رجالا كبارا وصغارا من أصحاب القضايا القرويين جالسين على سلم المحكمة يبصفون حولهم ويتمخطون، ثم تقدم خطوة أو خطوتين وادخل ساحة هذه الدار ترنساء جالسات متربعات على بلاط البهو وحولهن أولادهن يتبولون ويفعلون أكثر ذلك، والداخل أو الخارج ينظر الى آثار هذه الأعمال ، والشرطي واقف على رؤوس الجالسين لا ينبس بكلمة ؟

المنظر مؤلم والناس غافلون لاهون لهم عيون ولكن لا يرون بها ، وأنوف ولكن لا يشمون بها ، فمن هذه الحال السيئة غير وزارة الشؤون الاجتماعية تجرد عليها حملة قوية من الدعاة والوفاظ والمرشدين والجنود الاجتماعيين يبصرون الناس بما هم فيه ويلفتونهم الى ما ينبغي أن يكونوا عليه ، ويظنون بهم في المساجد والمجتمعات والشوارع ينصحونهم ويعظونهم حتى يغيروا ما بهم ويستبدلوا بحالتهم حالة أصون لكرامتهم الانسانية ولسمعتهم القومية . وليس ذلك بعزيز على الوزارة الناشئة التي نرجو لها كل الخير والتوفيق .

أحمد ضيف